

الحوار الفلسطيني الإسرائيلي: بين الموجود والمطلوب

د. نوح سلامة *

لقد انتشرت مؤسسات الحوار في فلسطين وإسرائيل في الفترة الأخيرة انتشاراً بالغاً، ولكن المؤسف أن كثيراً من هذه المشاريع لم تخدم قضيتنا، القضية الفلسطينية العادلة، ولن تخدمها. ولمنع سوء الفهم، بؤدي أن أوضح أنني لست ضد الحوار أو السلام أو المساواة أو التعايش، بل إني ضد النقاش الذي لا يجري إلا في سبيل النقاش، وضد استغلالنا لترسيخ الوضع القائم القائم. في نهاية المطاف، هدف الحوار ينبغي أن يكون الحلّ العادل لقضيتنا، إذ يجب أن يعود اللجوء إلى قريته، والمهجر إلى مكان إقامته، ويجب أن يُنصف المظلوم... هذا ما ينبغي أن يرمي إليه الحوار، لا السعي وراء الكسب السريع وقضاء الأوقات في فنادق جميلة فقط.

لذا، أعتقد أن أي لقاء بين إسرائيليين وفلسطينيين يجب أن يركز على مبادئ المساواة والتوازن، وأن يقوم على قيم العدل والمساواة والاحترام؛ وإلا أصبح امتداداً للاحتلال، لكن على نحو آخر. للأسف، هذا ما يحدث في الكثير من المشاريع، حيث يكون الشريك الإسرائيلي مؤسسة كبيرة لديها تمويل ضخم، ولها اتصالات دولية واسعة وتبحث عن شريك فلسطيني صغير يبحث عن تمويل بأية طريقة، لذلك فهو مستعد أن يقبل بأي شروط. أنا هنا لا أبتغي التعميم، وأود أن أوضح أن هناك قلة من المشاريع والمؤسسات تحافظ على مبادئها وعلى التوازن في العلاقة.

هناك مجموعة من المؤسسات الإسرائيلية المتقدمة والتابعة لأحزاب أو قيادات إسرائيلية، والتي تخدم سياسة ذلك الحزب أو المسؤول، وآخر ما في حساباتها مبادئ السلام والعدل والمساواة والقيم الإنسانية التي تحدثنا عنها. من تلك -على سبيل المثال- "مركز بيرس" ومؤسسة "غفعات حبيبا". هاتان المؤسساتان تدعيان أنهما من اليسار الإسرائيلي، لكن الحقيقة أنهما على يمين حزب العمل الإسرائيلي، الذي هو كذلك لم يعد من اليسار. بالنسبة لـ "مركز بيرس"، فمن الاسم لوحده يتضح الموقع السياسي للمركز. وأود أن أضرب مثالا واحداً على برامجه: قبل أربعة أعوام تقريباً، حصل "مركز بيرس" على تمويل لإنشاء مراكز كمبيوتر للأطفال في فلسطين لتعليمهم على الإنترنت، بهدف تبادل الرسائل مع أطفال إسرائيليين لخلق السلام. تلك فكرة فاشلة من أساسها، وذلك أن النزاع ليس بين الأطفال، بل هو نزاع سياسي، وإن لم يُحلّ النزاع السياسي فلن يعم السلام. ولذا، إن زج الأطفال في النزاع لن يؤدي إلا انعكاس ذلك سلبياً على نفسيات الأطفال الفلسطينيين، الذين يعيشون في وضع اقتصادي وإنساني مختلف عن الإسرائيليين - وهذا موضوع طويل مبحثه...

ومن ذلك ما قامت به مبادرة جنيف عندما وجهت رسائل إلى الإسرائيليين بذريعة محاولة إقناعهم بالمفاوضات، وفهم منها أن بعض المسؤولين الفلسطينيين يحملون الجانب الفلسطيني مسؤولية عدم تقدم المفاوضات، مما حدا برئيس الوزراء سلام فياض والرئيس عباس إلى الطلب من المبادرة عدم استخدام صورهما في الحملة.

وهنا نتساءل: لِمَ ينبغي دوماً أن تُرضي الإسرائيليين؟! لِمَ ينبغي أن نستجديهم ونرجوهم كي يعطفوا علينا؟! أليسوا هم الاحتلال؟! أليسوا هم من يضعون العقبات أمام السلام، أم هو شعور بعضنا بالدونية إزاءهم؟! لِمَ التنازل مجّاناً والتبرّع بتحمّل مسؤوليّة ضياع السلام بدون ثمن؟! إني أعتقد أنّ العمل في الحوار والسلام يحتاج إلى أناس أقوياء واثقين بأنفسهم؛ أناس يفهمون الوضع السياسيّ جيّداً؛ أناس داعمين للمواقف السياسيّة وللحقوق الفلسطينيّة، لا أناس يكونون عبئاً عليها ويقدمون التنازلات المجّانيّة؛ أناس لا يرضخون للضغوط السياسيّة وليسوا مضطّرين إلى الانحناء؛ أناس يعكسون رأي الشارع الحقيقيّ ويعبرون عن حقوق الشعب الفلسطينيّ لا العكس.

أعتقد أنّ هذا الموضوع يحتاج إلى تقييم ومراجعة، من قِبَل القائمين عليه، ويجب التنسيق بين الجمعيات والمنظمات الفلسطينيّة الفاعلة في الحقل، والاتفاق على أهداف مشتركة وخطوط حمراء لا يجوز لأيّ كان أن يتخطاها، كالتوازن بين المنظمات الفلسطينيّة والإسرائيليّة من حيث التخطيط ووضع الأهداف، ومن حيث صرف الميزانيات، وكذلك اعتماد الحوار السياسيّ الذي يرمي إلى تحقيق الحلّ العادل، ورفض كلّ أشكال النقاش الفارغ التي ترمي إلى ترويض الجانب الفلسطينيّ لكي يتقبّل الوضع القائم.

أعتقد أنّ أيّ لقاء لا يستند إلى المساواة ومبادئ العدل والاعتراف بحقوق الفلسطينيين يسوء إلى القضية الفلسطينيّة، وكذلك إنّ لقاءات الأطفال أو ألعاب كرة القدم أو المشاريع التي تتحدّث عن تقبّل سردية (رواية) الآخر هي شكل من أشكال التطبيع التي تسوء إلى القضية الفلسطينيّة، لأنّ موضوع سردية الآخر (ما يسمى "ناراتف" - narrative) ليس فيه عدل، وذلك أنّه يسوّي ما بين المجرم والضحية. يجب أن تكون اللقاءات مبنية على أساس الحقائق، فكوننا لاجئين هو حقيقة، ونكبة العام 48 هي حقيقة لا سردية، وكوننا نعيش تحت الاحتلال وأنّ الإسرائيليين محتلون هو كذلك حقيقة لا سردية.

ختاماً، إنّ معظم هذه المشاريع تصبّ في مصلحة الاحتلال، ولا سيّما حين يقرّر الجانب الإسرائيليّ الموضوع والطريقة والأسلوب والنتيجة، وهذا لا يختلف عن قيم الاحتلال التي تعتمد على السيطرة والعنجهيّة والاستعلاء والتمييز العنصريّ كما ينعكس الأمر في المفاوضات الأخيرة. ولما كان السلام يعتمد على القيم والأخلاق المستندة إلى العدل والمساواة والاحترام، فإنّ هذه المشاريع غير المتوازنة تأتي بنتائج سلبية على الموقف السياسيّ الفلسطينيّ وعلى الحقوق الفلسطينيّة، وتتناقض مع قيم العمل في سبيل العدل والمساواة والسلام. وهي ترسخ سيطرة القويّ على الضعيف واستمرار الاحتلال بشكل أو بآخر. لذا، حان الوقت للقيام بوقفه صادقة وأمينه وقول كلمة حقّ. كفى تنازلاً، فذاك يضرّ بحقوقنا - وإن كانت التنازلات من قبل أفراد أو مؤسسات غير رسميّة.

*د. نوح سلامة - مدير مركز وفاق - مركز علم تسوية النزاعات والتصالح الاجتماعيّ، بيت لحم